ان زعامة الدروز والجبل تعني اول ما تعني الزعامة على منطقة سياسية ـ جغرافية هي غاية في الاهمية سواء كان المشروع الذي يستهدف عروبة لبنان مشروعا هجوميا تسلطيا ، ام مشروعيا دفاعيا انكفائيا ٠٠

ان الجبل هو في قلب المعركة من أجل عروبة لبنان ويستحيل على اى فريق ان يدعي هيمنة ما على لبنان ما لم يوطد هيمنته على الجبل ٠

ودروز الجبل هم تاريخيا حفظة عروبة المنطقة ، سياسيا ، على الاقل ٠ صحيح انه ينطبق عليهم الى حد ما صفة « الاقلية » الوافدة الى الجبل ، لكن الفرق بينها وبين الموارنة هي انها اقلية اسلامية وقفت باستمرار ضد الغزوات الاجنبية للمنطقة ، هذه الغزوات التي وجدت في الموارنة حليفا لها ٠

وبهذا المعنى تصبح الزعامة الجنبلاطية للدروز وللجبل امتدادا لتاريخ وطني صارع باستمرار ضد تيار الانعزالية اللبنانية ٠ ويكفي ان نتذكر تأكيد جنبلاط الدائم على « دور هذه الامارة العربية على الساحل اثناء الحكم الدرزي » ٠ لنكتشف كم انه مهتم ـ في سياق تاريخ بأكمله ـ للحفاظ على عروبة الجبل اولا وعلى منع تحوله الى شوكة في خاصرة الوطن العربي ٠

ولكن ما يجب ان يقال في هذا المجال هو ان هذه الخصوصية الدرزية (أقلية عربية في الجبل) التي وضعت جنبلاط في موقع الناقد لاي اتجاه عروبي طائفي ، وفي موقع المطالب بنهوض عربي على أساس ديمقراطي وحتى علماني ٠

ويمكننا ان نلحظ في العديد من كتابات جنبلاط مواقف التحفظ على النزعة القومية العربية الاسلامية لصالح الدعوة الى حركة عربية ديمقراطية يصح ، في حال غيابها ، التردد ، من موقع وطني وديمقراطي ، حيال الاتجاهات الوحدوية ٠ ولنا في مواقف جنبلاط من التيارات التي ازدهرت في فترة تصدع الامبراطورية العثمانية ما يؤكد لنا على هذا الطابع الخاص لفهم قضية العروبة والديمقراطية٠

فهو يمتدح مثلا فارس نمر واضرابه من « العلمانيين » المعادين للدولة العثمانية ويهاجم تيار « الانكماشية المارونية » ويتغافل عن ذكر التيار الاسلامي المعادي للغرب والمستعد لتجميد تناقضه الثانوي مع العثمانيين مقابل اندلاع المواجهة المشتركة مع الامبريالية ٠

ليس من الضروري التفصيل في هذا الموقف الجنبلاطي ودلالاته ٠ فكمال جنبلاط يبقى في النهاية القائد السياسي لاقلية طائفية ، (ولحركة وطنية عريضة ذات قاعدة اسلامية وصدى عربي ٠٠) عرفت كيف تتجاوز وضعها ، وتنتقل الى الاندماج في المعركة القومية متخلية عن الكثير من تحفظاتها ٠

وليس غريبا والحالة هذه ان تكون بعض التحفظات الجنبلاطية احترقت في لهيب معركة السنتين التي تحول خلالها كمال جنبلاط الى قائد قومي حقيقي ٠